كنوز الأجداد

- ٨ -

ابن الداية

احمد بن يوسف الكاتب

(٣٣٠)

كان يوسف بن ابراهيم والد احمد بن يوسف المعروف بابن الداية ولَد داية ابن المهدي العباسي وكاتب ابراهيم بن المهدي ورضيعه ومدبّر امواله وضياعه يُعَدُّ من كتاب الدرجة الأُولى ، له كتاب الطبيخ وكتاب اخبار ابراهيم بن المهدي . وانتقل من بغداد الى مصر ولم يعرف سبب انتقاله ولا سنة هجرته وغاية ما عُلم انه جاء دمشق سنة ٢٢٥ ولعل في هذا العام كانت هجرته من بغداد

كان يوسف من اهل المروآت التامة والعصبيات العظيمة ، وكان متمولاً ابتاع الضياع وتقبّل المزارع فنمت امواله وافضل منها على عُفاته ، فكان يجري على عشرات من أهل الستر من الأشراف وغيرهم في مدينة الفسطاط . حبسه ابن طولون مرة في بعض داره ، وكان اعتقال الرجل في داره يؤيس من خلاصه فجاء جماعة الى احمد بن طولون وبكوا وطلبوا اليه ان يقتلهم ان كان معتزماً على قتله . وقالوا ان لهم ثلاثين سنة ما فكروا في ابتياع شيء مما احتاجوا له ولا وقفوا بباب غيره . وكل هذا يزيد في خوف ابن طولون من يوسف بن ابراهيم فيقوم في نفسه انه عَيْن عليه يتسقط أخباره وينهي بها الى بغداد وهو من صنائع خلفائها وربيب نعمتهم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولما هلك يوسف بن ابراهيم اخذ ابن طولون صندوقين من كتبه ، وبين يديه رجل من اشراف الطالبيين ، فوقع على دفتر جراياته على الأشراف وغيرهم فوجد اسم الطالبي في الجراية فقال له : وكانت عليك جراية يوسف بن ابراهيم ؟ فقال له : نعم أيها الأمير ، دخلت هذه المدينة وأنا مملق ، فأجرى عليّ في كل سنة مائتي دينار ، أسوة بابن الأرقط والعقيقي وغيرهما ، ثم امتلأت يداي بطول الأمير فاستغنيت منها .

في هذه البيئة الرَّوِيَّة بمكارم الأخلاق ، العريقة في الآداب والفضل ، نشأ احمد بن يوسف في نعمة سابغة ، وسراوة ظاهرة ، تخرج في الآداب ، وتفنن في اخذ العلوم ، فجاء كاتباً سرياً ، وشاعراً مجيداً ، وطبيباً نطاسياً ، يحكم الرياضيات ، ويحذق الطبيعيات ، ويعلم النجوم . وصفه بعض واصفيه بانه مجسطي أوقليدسي ، وكان يعرف في العراق بالمهندس . ذكروا انه عرف بالشعر ولم يذكروا أن انشاءه فوق كل هذا . ولم يصلنا من شعره سوى بضعة ابيات قالها على البديهة لما خرج عليه الأعراب في بعض أرجاء مصر وأنقذه المُخَفِّرون من شرهم فقال فيهم :

جزى الله خيراً معشراً حقنوا دمي وقد شُرعت نحوي المثقفة السُّمرُ
دراهمهم مبذولة لضعيفهم وأعراضهم من دونها الغَفْر والستر
اذا ما اغاروا واستباحوا غنيمة اغار عليهم في رحالهم الشكر
وان نزلوا قطراً من الأرض شاسعاً فما ضرّه الا يكون به قَطْر

وكان كتب الى صديقه ابي الفياض سوّار بن شُراعة الشاعر لما اعتزم الرجوع الى بغداد مقدار خمسين ورقة من شعره ، وكان يستحسنه ويعجب به ولم يؤثر منه الا بيت واحد :

ظَلِلنا بها نستنزل الدنّ صفوها فينزل اقباساً بغير لهيب

كتب احمد بن يوسف سيرة احمد بن طولون وسيرة ابنه ابي الجيش خُمارويه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وسيرة هارون بن ابي الجيش ، واخبار غلمان بني طولون اي رجالهم والقائمين بأمرهم ، وفسّر كتاب الثمرة وأصله لبطلميوس ، ولعله كان في علم الفلك . ومن تآليفه أخبار الأطباء وأخبار المنجمين ومختصر المنطق ألفه للوزير علي بن عيسى وغير ذلك والكتاب الصغير الذي عرّفنا في الحقيقة الى احمد بن يوسف كتاب « المكافأة » روى فيه قصصاً سمعها أو رآها هو أو رواها له من شاهدها في مصر والعراق ومنهم والده ورجال ابن طولون ، ساق احدى وثلاثين قصة في المكافأة على الحسن واحدى وعشرين قصة على القبيح وتسع عشرة قصة في حسن العقبى . رجاء « ان يكون ذلك عوناً للاستكثار من مواصلة الخير وتطلب المعارفة في الحسن وزجر النفس عن متابعة الشر ، وابعادها عن سورة الانتقام في القبيح » قال في المدخل الى القسم الثالث : « رأيت ان أصِل ذلك (حفظك الله) بطُرَف من أخبار من ابتُلي فصبر . فكان ثمرة صبره حسنَ العقبى ، لأن النفس اذا لم تُعن عند الشدائد بما يجدد قواها تولى عليها اليأس فأهلكها . وقد علم الانسان ان سُفور الحالة عن ضدها حتمٌ لا بد منه ، كما علم ان انجلاء الليل يُسفر عن النهار ، ولكن خَوَر الطبيعة اشد ما يلازم النفس عند نزول الكوارث ، فاذا لم تعالج بالدواء اشتدت العلة وازدادت المحنة ، والتفكر في اخبار هذا الباب مما يشجع النفس ويبعثها على ملازمة الصبر وحسن الأدب مع الرب (عز وجل) بحسن الظن في مواتاة الاحسان عند نهاية الامتحان . »

كل ذلك كتبه باسلوب رشيق وبألفاظ مختارة عذبة لا ترى أدنى أثر للتكلف في نسجها أصاغ كلامه صياغة صناع اليد فأبدع جديداً وأتى بغرائب من أخبار الناس ، ومن اتاهم بمثل هذا الضرب الطريف من الأدب تعاظموه وأكبروا بيانه . ولعل احمد بن يوسف لم يكن دون ابن المقفع ببلاغة وقد سلكَ معه في سلك واحد وينقل عنه ويقول ان هذا مما نقله ابن المقفع عن الفرس وتعالمه العرب وربما زاد على ابن المقفع انه كان أقرب الى الحياة لامتزاجه بالسوقة من

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلاحين وتجار ورجال الدولة وعلمائها ومهندسيها وقوادها وكان يعيش وابوه من قبله من الزراعة فعرف طرق الكسب الحلال وطرق تثمير المال وعرف طبقات الناس بكل ما انطووا عليه من خير وشر .

ولو قد أبقت الأيام على بعض ما كتبه هذا المؤلف العظيم لكان منه مادة في البلاغة والتاريخ والسياسة والعلم توفي على العاية ولا سيما ما كان منه خاصاً بوصف عصره ورجاله . ومن عجائب الدهر ان تفقد كتب من جودوا التأليف وتبقى مؤلفات من لم يحسنوا الاحسان المطلوب يتناقل الخلف تآليفهم .

وربما كان لنكبة الطولونيين (٢٩٢) وقضاء العباسيين على دولتهم صلة كبيرة بضياع كتب ابن الداية وفيها ولا شك الشيء الكثير من محاسن الطولونيين ، ومحاسنهم مما يشق على بني العباس نشره في الأمة ، وتخليده في الصحف لئلا يكون من بثها دعاية لهم ، وأبغض ما يكون الى المنافس الاشادة بفضائل منافسه ، لا سيما وقد كان المؤرخون يجمعون على ان احمد بن طولون بعلمه وسياسته وعدله أرقى من كثير من الخلفاء .

وعلى كثرة فضائل ابن الداية واتساعه في أدبه ونضجه في علمه ، لم يشتهر الشهرة التي هو قمين بهـا . ولو لم يعثر له على هذا الجزء من كتاب المكافأة لغطت الأيام على اسمه خصوصاً وهو لم يذكر الا في بعض تضاعيف الكتب ذكراً يكاد يكون مبتوراً ، ومعظم كتب الأدب حتى ما ألفه المصريون منها لا تذكره بكلمة الا نادراً ، ومن العجائب أيضاً ألا يعده جهابذة الأدب في جملة أعلامه وألا يضعوه في الصف الأول بين رعيل قدماء البلغاء . وقديماً سدل الدهر قناع النسيان على كثير من العظماء بعد قليل من رحيلهم عن الأرض لفقد ما كتبوا بعامل من عوامل الفناء او لقلة أنصارهم ومن اهمه امرهم . ومنهم من تضاعفت شهرتهم عند موتهم لسكوت حسادهم عنهم ومغالاة أحبابهم في تقريظهم .

ولعل انتقال والد ابن الداية من بغداد الى الفسطاط ونشأته في مصر في زمن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

غضب فيه خلفاء بني العباس على مصر وعلى اميرها احمد بن طولون لاستقلاله بحكمها كان من جملة الدواعي في ضؤولة شهرته . على ان مصر الطولونية ومصر الفاطمية بعد حين ما ساوت العراق بمنزلتها ، ولا يتأتى أن يشتهر ابناؤها اشتهار البغداديين . والى الحضرة أو مدينة السلام كان يحمل كل جميل ، وينعت الناس اهلها بالنعوت الحسنة وتتأفق شهرة أدبائها وعلمائها لكثرة ما تردد اسماؤهم في كل مكان وكيف تتأتى الشهرة لاحمد بن يوسف في دولة ضعيفة لم تعترف بها دولة الخلافة وتعدها خارجة عليها .

لم يتصل احمد بن يوسف باحمد بن طولون اتصالاً وثيقاً في صباه وابن طولون مات سنة سبعين ومائتين وابن الداية مات سنة نيف وثلاثين وثلاثمائة في اصح الأقوال والدولة الطولونية انقرضت سنة ثنتين وتسعين ومئتين فيكون ابن الداية على هذا كتب كتبه في بني طولون قبيل انقراض دولتهم .

نعم هذا هو الكتيّب الذي به ظهر احمد بن يوسف في أندية الآداب يحمل ابداعاً في موضوعه وابداعاً في وضعه ، موضوع قلما عناه احد قبله يقصد به تربية النفوس على الخير ويحبب اليها فعله ويشيد بمن كان هذا مبلغهم من الأخلاق اشادة يقدسون بها تقديساً . ولم يصدر المؤلف في ما كتب به عن خيالٍ بل أخذ مادته من قلبه وخُلقه ، تغنّي بما سبق له ولأبيه ان اقتنياه وعدّا من الطبيعة القيام بمثله وأراد المؤلف ان يلقن أبناء المستقبل هذه المكرمات حتى لا تستغرق المادية الناس ويرتفع من بينهم التعاطف والايثار . فكتب فيها ورقات قليلة الجرم عظيمة النفع افادتنا لا تفيده المجلدات لأن المؤلف كتب وأخلص في تأليفه وأراد به الدعوة الى المروآت لا التبجح ولا التنفج . بضعة كتب خطتها أنامله الفنانة فقضى الله بذهابها وبقي له هذا الكتاب الصغير احيا به ذكره بعد ألف سنة على وفاته .

وهنا نكتفي بايراد قصص من قصصه رأيناها خير ما يترجم له ويقفنا على طريقته .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال ابن الداية : « حدثني أحمد بن أبي يعقوب قال : أنكر المهدي على هَرْثمة ابن أَعْيَن (من أكبر قواد المهدي) تحككه بمعن بن زائدة وأمر بنفيه الى المغرب الأقصى ، فكلمه الرشيد فيه واستلَّ سخيمته عليه . ومات معن ، وزادت حال هرثمة ، وشكر للرشيد ما كان منه . وأفضت الخلافة الى موسى الهادي فتمكن منه هرثمة . وحدثت الهادي نفسه بخلع الرشيد ، وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده ، وعلم بهذا هرثمة ، وتذكر عارفة الرشيد فتمارض ، وجمع الهادي الناس ودعاهم الى خلع الرشيد ونصب ابنه مكانه فأجابوه وحلفوا له ، وأحضر هرثمة فقالوا له : تبايع يا هرثمة ؟ فقال : يا أمير المؤمنين يميني مشغولة ببيعتك ، ويساري مشغولة ببيعة أخيك فبأي يد أبايع ؟ والله يا أمير المؤمنين لا أكدت في الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك في بيعته . ومن حنث في الأولى حنث في الأخرى . ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة ، وإسرارها فيك خلافَ ما أظهرت ، لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من حضر : شاهت وجوهكم ، والله لقد صدقني وكذبتموني ، ونصحني وغششتموني . وسلم إليَّ الرشيد ما قدره الهادي فيه » .

قصة ثانية : « حدثني هرون بن مَلُّول قال حدثني ياسين بن زُراة قال : كان ببعض أرياف مصر نصراني من أهلها كثير المال فاشي النعمة سمح النفس ، وكانت له دار ضيافة ، وجرايات واسعة على ذوي السِّتر بالفسطاط . فهرب من المتوكل رجل كَنَى عن اسمه لخطير منزلته ، لميل كان من المنتصر اليه ، فلما دخلها رأى فيها كثيراً من أهل بغداد ، فخاف ان يعرف فنزع الى أريافها ، فانتهى به المسير الى ضياع النصراني فرأى منه رجلاً جميل الأمر ، وسأله النصراني عن حاله ، فذكر أن الاختلال انتهى به الى ما ظهر عليه . فغير هيئته ، وفوض اليه شيئاً من أمره ، فأحكم ما أسند اليه واضطلع به . ولم يزل حاله يتزايد عنده حتى غلب على جميع أمره ، وقام به أحسن قيام ، فكان محل الرجل الهارب من النصراني يفضل كلَّ ما ذهب له .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

« وورد على النصراني مستحث يحمل مال وجب عليه . (وسأله) النصراني عن خبر الفسطاط فقال : ورد خبر قتل المتوكل وتقلد المنتصر . ووافى رسول من المنتصر في طلب رجل هرب في أيام المتوكل يعرف بفلان بن فلان ويوعز الى عمال مصر والشام بأن يتلقوه بالتكرمة والتوسعة فيلحق أمير المؤمنين في حال تشبه محله عنده . فعدل النصراني بالمستحث الى بعض من أنزله عليه ، وخلا الهارب بالنصراني فقال : أحسن الله جزاءك ، فقد أوليت غاية الجميل وأحتاج الى أن تأذن لي في دخول الفسطاط فقال : يا هذا إن كنت استقصرتني فاحتكم في مالي ، فاني لا أرد أمرك ولا أزول عن حكمك ؛ ولا تنأ عني ، فقال له : أنا الرجل المطلوب بالفسطاط وقد خلّفت شملا جمّاً ، ونعمة واسعة . إنما عدل بي الخوف على نفسي . فقال له : ياسيدي فالمال في يدك وما عندك من الدواب فأنت أعرف به مني فاحتكم فيه ، فأخذ بغالاً وما صلح لمثله ، وخرج النصراني معه . وقدم كتاباً الى عامل المعونة من مستقرّه ، فتلقاه عامل المعونة في بعض طريقه ، ووصاه وجميع العمال بالنصراني ، وصار الى الحضرة فأصدر اليهم الكتب في الوصاة به الى أن قدم بعض العمال المتجرة فتتبع النصراني ورام الزيادة عليه فخرج الى بغداد .

« قال لي هرون إن ياسين قال له : إن النصراني حدثه أنه دخل الى بغداد فلم ير بها أرقى محلاً ، وأكثر قاصداً منه ، ثم استأذنت عليه وعنده جمع كثير فخرج أكثر غلمانه حتى استقبلوني فلما رآني قام على رجليه ثم قال : مرحباً بأستاذي وكافلي والقائم بي حين قعد الناس عني . وأجلسني معه وانكب على ولده وشمله ، وأنا أتأمل مواقع الاحسان من الأحرار ، وسألني عن حالي في ضياعي فأخبرته خبر العامل ، وكان أخوه في مجلسه فنظر اليه من كثب عنده ، وقال له : كنت السبب في تقليد أخيك فصار أكبر سبب في مساءتي ، فكتب من مجلسه كتاباً اليه بجلية الخبر وأنفذه . وأقمت عنده حولاً في أرغد عيشة وأعظم ترفه . وورد عليّ كتب أصحابي فخبروني بانصراف العامل عن جميع ما كان اعترض عليه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

في أمري . وأخرج أمر السلطان في إسقاط أكثر خراج ضياعي والاقتصار بي على يسير من مالها . قال ياسين فكتب النصراني ببغداد حجة أشهد فيها على نفسي أن أسهمه في جميع الضياع التي في يده (وسماها وحددها) لهذا الرجل الذي كان هرب ، وصار بها اليه ، فقال له : قد سوغك الله هذه الضياع ، فاني أراك أحق بها من سائر الناس ، فامتنع الرجل من ذلك وقال له : عليك فيها عادات تحسن ذكرك ، وترد الأضغان عنك ، ولست أقطعها بقبض هذه الضياع عنك ، ورجع النصراني الى الفسطاط فجدد الشهادة له فيها . فلما توفي النصراني أقرها في يد أقاربه ، ولم يزالوا معه بأفضل حال » .

قصة ثالثة : وحدثتني أم آسية قابلة أولاد خمارويه بن طولون (وكان لها دين ومذهب جميل ومحل لطيف من خمارويه) وقد تذاكرنا لطف الله (عز وجل) في أرزاق عباده ، وحسن الدفاع عنهم ، انه تزوجها وأختها أَخَوان . فأقبلت حال زوج أختها وأدبرت حال زوجها . قالت وتوفي زوجها بأسوإ حالة ، وخلّف لها بنات ، وتعذر عليها تجهيزه من اختلاله . وتوفي زوج اختها وقد خلّف من العَيْن والمساكن والأواني لولد اختها .

قالت : فكنت أجاهد في مؤونة ولدي ، واذا وقف أمري صرت الى أختي فقلت : أقرضيني كذا وكذا استحياءً من ان أقول لها : هَبي لي . ودخل شهر رمضان فلما مضى نصفه اشتهوا عليَّ صبياني حلواءَ في العيد ، فصرت الى أُختي فقلت لها : أقرضيني ديناراً أعمل به للصبيان حلواء في العيد . فقالت : يا أختي تغيظيني بقولك : « أقرضيني » واذا أقرضتك من أين تعطيني ؟ أمن غلة دورك أو بستانك ؟! لو قلت هَبي لي كان أحسن . فقلت لها : أقضيك من لطف الله تعالى الذي لا يُحتسب ، وجوده الذي يأتي من حيث لا يُرتقب . فتضاحكت وقالت : يا أختي ! هذا والله من المُنى ، والمُنى بضائع النَّوكى ، فانصرفت عنها أجرُّ رجليَّ الى منزلي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وكان في جوارنا خادم أسود لبنت اليتيم امرأة خمارويه . فلما بلغتُ جارتنا قال لي : في جوارنا امرأة تطلق قد أوجعت قلبي . ادخلي اليها فليس لها قابلة . قالت ام آسية : والله ما عانيت ممخوضةً قط . فدخلت اليها فمسحت جوفَها واجلستها كما كان القوابل يُجلسنني في طلقي فولدت من ساعتها ، فلما امسك صياحها ، جاء الخادم يسأل عنها فقلت قد ولدت . فعجب من سرعة أمرها ، وظن ان هذا شيء قد اعتمدته بحذق صناعة ، ولُطف في مهنة ، فمضى الى سته بنت اليتيم وكانت مُقرباً بأول ولد حمل لأبي الجيش ، وقد عُرض عليها قوابل استثقلتهن ، فقال : في جوارنا قابلة أحضرناها لمرأة في جارتنا تطلق فوضعت يدها على جوفها فسقط ولدها . ووصفني بما لا يوجد في قدرة أحد الا بالله عز وجل . فقالت للخادم : اذا كان غدٌ فجئني بها . فأتى الغلام ودعاني الى مولاته فأجبت بانشراح صدر وثقة بالله تعالى . فاستخفّت روحي وقالت : الى التمام تقدير الله تبارك وتعالى . ثم شكت مَغْساً تجده المُقْرِب ، فأدخلت يدي في ثيابها ومسحت جوفها ، وعججتُ الى الله تعالى في سرّي بتوفيقي ، وكنت أدعو ، ومن حضر من أهلها يتوهم اني أرْقي ، فسكن ما وجدته وتبركت بي ، ودخل اليها خُمارويه ، وقال : ما وجدت ؟ فقالت : مغساً في جوفي ، فوضعت قابلة اردتها يدها عليه فزال ما أجده . وأخرجتني اليه (وكان قريباً من حرمه) فقال لي : أرجو أن يخلصها الله (عز وجل) ببركتك .

قالت ام آسية : ودخلنا في العشر الأواخر من شهر رمضان ، وقد تمسكت من الاخلاص لله (عز وجل) بما لا يصل اليه من ساح في الجبال ، خوفاً من شماتة أختي بي ، فلم تمض الا ثلاثة أيام حتى مَخِضَت فأجلستها الى كرسي الولادة (وكان مقدار طلقها ساعتين) فولدت ابناً أسهل ولادة ، وابو الجيش يقوم ويقعد ويذهب ويجيء ، فلما ولدت وكانت تتوقع من الولادة امراً عظيماً ، فلما ألقته ، قالت لي : هذا الطلق ؟ قلت : نعم . فقبّلت — يعلم الله — عيني من الفرح ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وصاح خمارويه : أخبريني يا مباركة بخبرها فقلت : وحياة الأمير انها في عافية ، وقد ولدت غلاماً سوياً الخلق بحمد الله ، فوجّه اليّ بألف دينار ، وألحّ ابو الجيش في النظر اليها لفرط اشفاقه عليها . فاستوقفته الى ان نقلت حوائج الولادة ، وقلت لها يا سيدتي : اضحكي في وجهه لما ترَيْنه . فلما دخل اليها ضحكت في وجهه ، فتقدم بصدقة مال كثير عنها وعن ولده .

وقالت لي ام آسية : لما كان يوم الأسبوع « ووقع قبل العيد بيوم واحد » امرت لي بخمسمائة دينار ، وحصل من أتباعها الف دينار . فحصل لي ألفان وخمسمائة دينار . وخلعت عليّ وسائر حشمها اكثر من ثلاثين خِلعة . وحُمل اليّ مما أُعد للعيد ثلاث موائد خاصة . وانصرفت الى منزلي فأرسلت الى أختي مائدة ، ووافتني مهنئة ، وقد تقاصر طولها فأربتها ما حصل لي من المال والخلَع والطيب ، وقلت لها : يا أختي ، أنكرت عليّ قولي : « أقرضيني » ومن هذا كنت أقضيك ، فلا تستصغري مَنْ كان الله مادته ، وعليه مدار ثقته وتعويضه .

واكتسبت هذه المرأة بمحلها من ابي الجيش مالاً كثيراً ، وقضت لجماعة من وجوه البلد حوائج خطيرة اه .

وفي المكافأة فوائد طريفة وحقائق قد لا تجدها مكتوبة منها : وكنا لا نفضي من بلدان خراسان الى بلد الا وجدناه أغلظ طبعاً من البلد الذي فارقناه حتى بلغنا بخارى فرأينا قوماً في نهاية من غلظ الطباع . فقال لي مذ رآني أتعجب منهم : كيف لو رأيت الترك وبلدانهم ؟ يقتلون المستجير بهم ويغير بعضهم على بعض فيهلك النازع اليهم بينهم .

هذا في المعاني وفي الألفاظ تفرد المؤلف بالفاظ عذبة لا عهد لنا بمثلها قبله حاشا كبار البلغاء من الكتاب ومنها ما لم يعثر له على أثر في المعاجم العربية ومنها ما لا نزال نستعمله ولكن في معانٍ غير المعاني التي عبر بها عنها . أما التراكيب فهناك الاعجاز . كتاب المكافأة معجز بالفاظه وتراكيبه تقف فيه

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على ما ليس له اليوم ما يشبهه وتقرأ فيه صوراً من الظلم كان يقع من عمال السلطان بل على ما ليس لهم علاقة به وجمعوا ثروتهم من تجاراتهم ووصف ما يعمله زبانية الملك أو الأمير أو الخليفة لاستخراج الأموال بالتعذيب على صفة قلّ ان جرى مثلها في ادوار الانسانية .

الحافظ الذهبي

(٧٤٨)

محمد بن احمد بن عثمان بن قايماز

شمس الدين ابو عبد الله التركماني الفارقي

مؤرخ ولا كالمؤرخين ومحدث ولا كالمحدثين . هو رجل ساير العقل فتفرد في تآليفه ونظر في ما حواه صدره من أصناف العلم نظرة بليغة فأتى بجديد ضمه الى القديم فسد ثلمة كانت لولاه فارغة ، وقام بغرض كان بعضهم يعده نافلة ، هو امام تعب بعلمه حتى يستريح من بعده .

كتب التخليد والتأييد لتآليفه وجاءت على توخيه فيها الاختصار زبداً من علم الاسلام وتكملة لتاريخ رجاله تلمح في صفحاتها بعد النظر وسداد الرأي ، وانصاف الحكم ، وتقف أمامها تكبر صنع واضعها ومدونها وتقول ان دمشق يحق لها اذا عدت في حسنها الحافظ ابن عساكر في القرن السابع ان تفخر بأنها كانت مطلع شمس الحافظ الذهبي في القرن الثامن وكلاهما لم تقف شهرته والانتفاع بما كتب عند حد دمشق او الديار الشامية بل تعدتها الى الشرق والغرب فعدا من أعظم المؤرخين في المسلمين .

ترجم الصفدي للذهبي في نكت الهميان وعده في العميان لأنه أضر قبل موته باربع سنين أو أكثر فقال : حافظ لا يجارى ولافظ لا يبارى ، أتقن

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الحديث ورجاله ونظر علله وأحواله وعرف تراجم الناس وأزال الابهام في تواريخهم والالباس مع ذهن يتوقد ذكاؤه ، ويصح الى الذهب نسبته وانتماؤه ، جمع الكثير ، ونفع الجم الغفير ، وأكثر من التصنيف ، ووفر بالاختصار مؤونة التطويل في التأليف ، وقف الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني على تاريخه الكبير المسمى تاريخ الاسلام جزءاً بعد جزء الى ان أنهاه مطالعة وقال : هذا كتاب علم .

قال الصفدي : اجتمعت به وأخذت عنه وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ، ولم أجد عنده جمود المحدثين ، ولا كودنة النقلة ، بل هو فقيه النظر ، له دربة بأقوال الناس ، ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات . واعجبني ما يعانيه في تصانيفه من انه لا يتعدى حديثاً يورده حتى يبين ما فيه من ضعف متن ، أو ظلام اسناد أو طعن في رواة » والكودنة من الكودن هو البرذون يوكف ويشبه به البليد يقال ما أبين الكدانة فيه أي الهجنة . وقالوا فيه هو « رجل الرجال في كل سبيل كأنما جمعت آلاته في صعيد واحد فنظرها ثم أخذ يخبر عنها أخبار من حضرها » « ما زال يخدم هذا الفن — فن الحديث — حتى رسخت فيه قدمه وتعب الليل والنهار وما تعب لسانه وقلمه وضربت باسمه الأمثال » « ورغب الناس في تواليفه ورحلوا اليه بسببها وتداولوها قراءة ونسخاً وسماعاً » .

وهذه الجمل القليلة تنبئ بما حملت نفس الذهبي العظيمة وما صرف فيه أيام عمره التي بورك له فيها فصنف التصانيف الكثيرة الجليلة منها تاريخ الاسلام الكبير في احدى وعشرين مجلداً ومختصره سير النبلاء في عدة مجلدات ومختصر العبر وطبقات الحفاظ وطبقات مشاهير القراء والتاريخ الممتع في ستة أسفار وكل ذلك لم يطبع والمطبوع من تآليفه « دول الاسلام » ومشتبه النسبة وتذهيب التهذيب وميزان الاعتدال في نقد الرجال وغيره . ومن ألقى نظرة على المشتبه عرف تفرد الذهبي بمعارف وأدرك احاطته . وقد اختصر عدة تواريخ وكتب في الطبقات وله تصانيف أخرى لم تشتهر .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

سمع الذهبي الحديث ببلاد كثيرة من خلائق يزيدون على ألف ومائتين والغالب أنه لم تتعدَّ رحلاته الشام ومصر . قال في الدرر الكامنة إنه تخرج على علماء عصره في دمشق والقاهرة ومهر في فن الحديث وجمع فيه المجاميع المفيدة الكثيرة حتى كان أكثر أهل عصره تصنيفاً وجمع تاريخ الاسلام فأربى فيه على من تقدمه بتحرير أخبار المحدثين خصوصاً وقطعه من سنة سبعمائة واختصر منه مختصرات كثيرة منها العبر وسير النبلاء وملخص التاريخ قدر نصفه وطبقات الحفاظ وطبقات القراء والاشارة وغير ذلك ، واختصر السنن الكبيرة للبيهقي فهذبه وأجاد فيه وله الميزان في نقد الرجال أجاد فيه أيضاً واختصر تهذيب الكمال لشيخه المزي وخرج لنفسه المعجم الكبير والصغير والمختص بالمحدثين فذكر فيه غالب الطبقة من أهل ذلك العصر وعاشر الكثير منهم بعده الى نحو الأربعين سنة اخرج لغيره من شيوخه ومن أقرانه ومن تلامذته .

وطعن عليه ابن الوردي في ذيل تاريخ ابي الفداء وقال انه منقطع القرين في معرفة اسماء الرجال محدث كبير مؤرخ وقال انه استعجل قبل موته فترجم في تواريخه الأحياء المشهورين بدمشق وغيرها واعتمد في ذكر سير الناس على احداث يجتمعون به وكان في أنفسهم من الناس فآذى بهذا السبب في مصنفاته اعراض خلق من المشهورين .

وكلام ابن الوردي موضع نظر فان الذهبي يتعذر عليه ان يقف على تراجم المئات ممن ترجم لهم بدون ان يستعين بتلاميذه وأصحابه وهو ليس له تارات على أحد حتى يعلي منهم ويخفض على هواه ولكن الناس لا يرضيهم اذا اعطوا حقهم من الترجمة ولو بزيادة قليلة ويغتبطون اذا زادهم المؤلف ما يربو على حقهم فان غلطة واحدة غلطها ابن الوردي في المبالغة بابي الفداء أكبر من كل غلطة للذهبي اذا صح أنه غلط في ترجمة بعضهم وما راق ابن الوردي الا الطعن بالذهبي واي غلطة ان يقول ابن الوردي انه ليس في الملوك بعد المأمون أفضل

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

من ابي الفداء وما كان هذا في حقيقته أكثر من وال عند المماليك يقبل الأرض بين أيديهم لتصفو له عمالة حماة وهذه كل مملكته واذا رجعنا الى تآليفه فنجد تاريخه خلاصة ما كتبه ابن الأثير وغيره وكتابه تقويم البلدان منقول من كتاب آخر وليس هو بأكثر من فهرس معجم جغرافي فكيف يكون من هذه سياسته وهذا علمه ثاني المأمون العباسي !

وبالطبع كان المخالفون للذهبي في مذهبه يطعنون عليه بأنه يتحيز لجماعته ويحط من أقدار مخالفيه . شنشنة قديمة للنيل من المؤلفين بل لنيل المغمورين من المشهورين . قارن حافظ الشام ابن ناصر الدين بين الذهبي والبرزالي والمزي فحكم للمزي بالتفوق في معرفة رجال طبقات الصدر الأول وللبرزالي في العصرين ومن قبلهم من الطبقات القريبة منهم وللذهبي في الطبقات المتوسطة بينهما تأييداً لقول بعض مشايخه على ان الأهواء قلما تتغلب المزي والبرزالي في تراجم الناس بخلاف الذهبي .

وقالوا ان الذهبي شديد الميل الى آراء الحنابلة لا ينصف الأشاعرة في التراجم وقال فيه السبكي في طبقاته ، وبنو السبكي من غلاة الشافعية : صنف التاريخ الكبير وما أحسنه لولا تعصب فيه . وعداوة الشافعية للحنابلة مشهورة . ومثل الذهبي بعلمه يود كل شافعي وكل حنبلي ان ينطق باسم اهل مذهبه ويرعاهم وينحي على خصومهم وهذا يستحيل على من تشبع بروح التاريخ كالحافظ الذهبي ، وميله الى الحنابلة أمر طبيعي فهو امام الحديث والحنابلة لا يقيمون وزناً قبل كل شيء لغير الحديث .

تولى الذهبي مشيخة الظاهرية قديماً ومشيخة النفيسية والفاضلية والتنكزية وأم الملك الصالح وقيل انه كان له درس في قرية كفر بطنا من الغوطة وقيل انه ولد فيها والأرجح أنه ولد في دمشق وهو من أصل تركماني وفي اجداده من اسمه قايماز أما الفارقي فلم يعرف من أين أتت ومن شعره :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تولى شبابي كأن لم يكن واقبل شيب عليـنا تولى
ومن عاين المنحنى والنقى فما بعد هذين الا المصلى

ومنه : اذا قرأ الحديث عليّ شخص وأخلى موضعاً لوفاة مثلي
فما جازى باحسان لأني أريد حياته ويريد قتلي

عاش الحافظ خمساً وسبعين سنة وأنتج هذا الانتاج العجيب فهو من أفراد الدهر .

ابو عبيد البكري

عبد الله بن عبد العزيز بن محمد

(٤٨٧)

كان جده قاضياً في لَبْلَةَ وأبوه من الأمراء وقائداً في شلطيش وأونُبة من قواد الخليفة الأموي هشام المؤيد . ولما سقطت دولته لم يستطع ابنه عبد العزيز بعده أن يعصي أمير إشبيلية المعتضد وكان هذا يرمي الى توحيد امارات الأندلس بأسرها فرّ من شلطيش بذخائره سراً ومعه ابنه عبد الله هذا ثم اعتصم بقرطبة . وفي هذه المدينة نشأ ابو عبيد وأتم ثقافته على أعاظم علماء تلك الحاضرة . ثم اتصل بأمير المرية وتصرّف له ، وفيها أخذ عن ابن حيان مؤرخ الأندلس وسفر عن صاحب المريّة . ولما استولى المرابطون على الأندلس اعتزل العمل في قرطبة وانصرف الى العلم والتأليف .

اشتهر البكري بالشعر ومعظم شهرته بابحاثه اللغوية والجغرافيـة والأدبية والتاريخية . قال ابن مكتوم انه من أهل شلطيش سكن قرطبة يكنى ابا عبيد روى عن ابي مروان بن حيان وابي بكر المصحفي وابي العباس العذري سمع منه بالمريّة وأجاز له ابو عمر بن عبد البر الحافظ وغيرهم وكان من أهل اللغة والآداب الواسعة والمعرفة بمعاني الشعر والغريب والأنساب والأخبار متقناً لما

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قيده ضابطاً لما كتبه جميل الكتب مهتماً بما يمسكها في ثياب الشَّرْب (أي الرقيق من الكتان) وغيرها اكراماً لها وصيانة رواه ابن بشكوال .

وترجمه الفتح بن خاقان في قلائد العقيان بما صورته : عالم الأوان ومصنفه ، ومقرط البيان ومشنفه ، بتواليف كأنها الخرائد ، وتصانيف أبهى من القلائد ، حلى بها من الزمان عاطلاً ، وأرسل بها غمام الاحسان هاطلاً ، وضعها في فنون مختلفة وأنواع ، وأقطعها ما شاء من اتقان وابداع . وأما الأدب فهو كان منتهاه ، ومحل سُهاه ، وقطب مداره ، وفَلَك تمامه وابداره . وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهاديَ المقل للكرى ، والآذان للبشرى ، على هنات كانت فيه فانه رحمه الله مباكر للراح ولا يصحو من خمارها ، ولا يمحو رسم ادمانه من مضمارها ، ولا يُريح الا على تعاطيها ، ولا يستريح الا الى معاطيها ، قد اتخذ ادمانها هجّيرة ، ونبذ من الاقلاع عنها نبذ عاجم بن الأثين مجيره ، فاذا حان انقراض شعبان وانصرامه كانت فيه مستبشعة الذكر ، مستشنعة النُّكر ، تمجها الأوهام والخواطر ، ويثبتها السماع المتواتر .

وقد اثبت ما يشهد لك بتقدمه ، ويريك منتهى قدمه . رأيته وأنا غلام ما أقمر هلالي ، ولا نَبَع في الذكاء كوثري ولا زلالي ، في مجلس ابن منظور ، وهو في هيئة كأنما كسيت بالبهاء والنور ، وله سَبَلة يروق العيون ايماضها ، ويغرق السوادَ بياضُها ، وقد بلغ سن ابن محلم ، وهو يتكلم فيفوق كل متكلم . فجرى ذكر ابن مقلة وخطه ، وأفيض في رفعه وحطه فقال :

خط ابن مقلة من أرعاه مقلته ودَّت جوارحه لو أصبحت مقلا
فالدر يصفرُّ لاستحسانه حسداً والورد يحمر من ابداعه خجلا

وله فصل من كتاب راجع به الفقيه الأستاذ أبا الحسن بن دريد رحمهما الله :

وتالله اني لأطعم جنى محاورتك فيقف في اللهاة ، وأجد لتخيل مجالستك ما يجده الغريق للنجاة ، وأعتقد في مجاورتك ما يعتقده الجبان في الحياة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

متى تخطئ الأيام فيَّ بأن أرى بغيضاً ينالني أو حبيباً يقرّب

ورأيت رغبتك فى الكتاب الذي لم يتحرر ولم يتهذب ، وكيف التفرغ لقضاء أرب ، والنشاط قد ولى وذهب ، فما أجده الا كما قيل :

نزراً كما استكرهت عائر نفحة من فارة المسك التي لم تفتق

وبعد فقد رأيت مما ترجم له صاحب القلائد كيف طعن عليه لادمانه ابنة العنقود وكيف شهد ضمناً بانه يمتنع عن تعاطيها في شهر رمضان اي أنه مؤمن معترف بخطيئته . والغالب ان طول عشرته للملوك والأمراء جنت عليه من هذه الناحية فزادته غراماً بالخمر ، وحسناته الكثيرة تغفر له هذه الزلة ولو لم يكن من كبار العلماء ما كانت تعد شيئاً يذكر والسكارى اكثر من الصحاة .

وأهم ما وضع ابو عبيد من التآليف معجم ما استعجم ذكر فيه جملة ما ورد في الحديث والأخبار والتواريخ والأسفار من المنازل والديار والقرى والأمصار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محدودة . وأفاض في المقدمة في الكلام على جزيرة العرب وحدودها وقبائلها وما الى ذلك من الفوائد الجغرافية واللغوية والنحوية وعده السيوطي في النحاة وترجم له في طبقاتهم .

ورتب ابو عبيد معجمه على حروف ابي جاد وهي طريقة المغاربة في المعاجم وغيرها وذلك لتسهل عليه المبالغة في التنقيح في كل صفحة من صفحاته ولكتابه من اسمه نصيب (معجم ما استعجم) وكان ، كما قال احد علماء المشرقيات ، ضرورياً يرجع اليه في دراسة التاريخ القديم وعلم تقويم البلدان وشعراء الأقدمين والحديث . وعلق أستاذنا طاهر الجزائري على نسختنا ان عدد الاسماء التي هذا المعجم نحو ٤١٠٠ وأما الأبيات فهي اكثر من ذلك بكثير .

ورزق ابو عبيد حظاً كبيراً من النقد يشهد له معجمه الذي طبقت الآفاق شهرته وكان آية تدقيقه وضبطه وكذلك كان كتابه « التنبيه على أوهام ابي علي في أماليه . نقد فيه أمالي ابي علي القالي وفيه أيضاً مثال من أدبه الجم قال في

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

مقدمته : « هذا كتاب نبهت فيه على أوهام ابي علي في أماليه تنبيه المنصف لا المتعسف ولا المعاند محتجاً على جميع ذلك بالشاهد والدليل . فاني رأيت من تولى مثل هذا من الرد على العلماء والاصلاح لأغلاطهم والتنبيه على أوهامهم ، لم يعدل في كثير مما رده عليهم ، ولا أنصف في جمل مما نسب اليهم ، وابو علي رحمه الله من الحفظ ، وسعة العلم والنبل ، ومن الثقة في الضبط والنقل ، بالمحل الذي لا يجهل ، وبحيث يقصر عنه من الثناء الأحفل ، ولكن البشر غير معصومين من الزلل ، ولا مبرئين من الوهم والخطل ، والعالم من عدت هفواته ، وأحصيت سقطاته . وكفى المرء نبلاً ان تعد معايبه » . وبهذا الأدب نقد ذاك الراوية العظيم المشهود له في كل نادٍ فدلّ أيضاً على صفاء نفسه وعالي خلقه .

هذا غاية ما عرف من سيرة فريد قطره ووحيد فنه ، ابن الأندلس العظيم في عهد ترديها السياسي وقد وقاه الله شر السياسة فلم ينغمس فيها كما انغمس أجداده فأحبه ملوكهم وأخذوا يتهادونه ووسيلته اليهم بل وسيلتهم اليه أدبه وعلمه ألفته نفوسهم واغتبطوا بمنادمته فأعطى لكل عمل وقته حقق وأجاد في تحقيقه وأبدع فأحسن في ابداعه لا تقول وأنت تنظر في موضوعاته وهي مما لا تقبله كل الأذواق الا أنك في صحابة رجل جذّاب الحديث يأخذ كلامه بمجامع القلوب وانه تمثل ما حمل عن أولئك العظماء ولا سيما ابن حيان مؤرخ الأندلس وكاتبه الأكتب . واذا لم تكتب له الشهرة من طريق السياسة وفيها ما فيها من اضاعة العمر على الأكثر فقد كتب له الشهرة بتآليفه وكانت بيئته صالحة كل الصلاح لمن كان في مثل حاله من المؤلفين ، عرف ما عند المشايخ وما عند الخاصة والعامة وما عند الملوك والعظماء ووقف على ما يجري في مجالسهم وما تجول فيه أفكارهم .

محمد كرد علي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net